«الاستثمار»... هل يفهم البيروقراطيون السوريون

أندريه كراتكي *

غالباً ما يُطلق على سوريا «ملتقى الحضارات»، وهو تعبير فارغ المعنى بصورة أو أخرى. في هذا الأوان، «هي ملتقى للمصالح أكثر منه للحضارات». كل من أصحاب المصالح يسعى إلى تحقيق أهدافه الخاصة من دون اعتبار لسوريا أو للسوريين. قد يكون هذا الكلام قاسياً، لكنه . للأسف! . صحيح. وكلما اقترب السوريون من إدراك هذه الحقيقة، عاد عليهم ذلك بفائدة كبرى، والأمر الوحيد الذي يمكنهم فعله الآن هو أن يحاولوا قلب هذا الوضع بما يتوافق مع مصالحهم.

يمكن البدء بذلك، مثلاً، عبر تغيير مصطلح «الملتقى» الرومانسي إلى مصطلح أكثر واقعية كـ«منصّة». إن ذلك أقل عاطفية وإن كان الاصطلاح يطرح أي تداعيات يمكننا مبدئياً ربطه بالبراغماتية والرؤية الأكثر واقعية إلى المسألة. إن ذلك يمكّننا من التعامل مع المسألة على نحو أكثر فعالية.

هذا ما يمكن أن ينتج من مقاربة تكمن في صميم التفكير الواقعي للبلدان المتوسطة الحجم، التي تعلم من جهة أنها لا تستطيع العمل من دون اللجوء إلى القوى الكبرى، ولكن من جهة أخرى تطمح إلى الحفاظ على سيادتها على الأقل في المناطق الأساسية. يبدو من المثاليّ أن يكون من الممكن واقعياً تحقيق توازن مشترك لحضور القوى الأجنبية على التراب السوري، أو أفضل من ذلك: إذا ما كانت هذه القوى في بعض الحالات متصارعة (كما هو الأمر عادة في الواقع وكما تجري الأمور حالياً في النطاق السوري)، فيجب مثالياً إبقاؤها عند حدود الصراع السياسي.

حيادياً، يجب فعل ذلك إن أمكن من دون السماح لتلك «الطريقة في إيجاد توازن مشترك» أن تأخذ مكانها عسكرياً. يجب فعل ذلك حتى تكون سوريا على دراية بتبعات نسج تلك الشبكة من العلاقات، كما يجب أن تعلم الحدود التي لا يجب تجاوزها. بكلمات أخرى: يجب فعل ذلك بمهارة عالية للاستفادة من الطاقة العالية التي ينتجها اللاعبون الكبار عبر الضغوط المقابلة. هذا يجب أن يكون، رغم ذلك، من دون السماح لهؤلاء اللاعبين بالخروج عن قواعد اللعبة. إن هذا ليس سهلاً. إن ذلك باختصار أقرب الى أن يكون قَدَرَ البلدان الصغيرة أو المتوسطة الحجم. حتى هذه البلدان، رغم ذلك، يمكنها بنجاح تغيير ما يبدو أنه نقمة داخل نعمة إن تم التعامل مع ذلك بالأسلوب المناسب.

من زاوية نظر اقتصادية، هذه الرؤية تنبع منطقياً تحت الاصطلاح المخلّص المحفّز الذي هو «الاستثمار». لأكثر من سنتين تقريباً، استمرّ المسؤولون والمخططون السوريون بالتلويح بهذا الاصطلاح، كما يلوّح المظفّرون بسيوفهم، لكن ماهيّة مقدار معرفتهم بحقيقة الأمر (أو ما يعنيه بحده الأقصى) تبقى سؤالاً. من الممكن التخمين عبر بيروقراطيي واستشاريي الحكومة أنه بالنسبة إلى غالبيتهم «الاستثمار» يعني شعاراً يكرر للحفاظ على فعاليتهم لعدة أشهر أخرى، بالإضافة إلى أنه يعطيهم موضوعاً للتحدث عنه والظهور بمظهر الأذكياء، المهمين، والضروريين، الذين بإمكانهم أن يقيموا مؤتمراً حول الموضوع ويكتبوا عنه، ويضعوا له الخطط والتقارير، لكن من الصعب أن نلاحظ حدوث أي شيء في الواقع.

من الممكن أن يكون لدى الأكاديميين المختصين أو الأفراد من القطاع الخاص فكرة أكثر تماسكاً ووضوحاً. لكن، كأشخاص متمرّسين، من المتوقع افتقار الأرقام الكبيرة والمشاريع الضخمة، بالإضافة إلى غياب إعلان المشروع الاستثماري الكلّي ذي العنوان العريض، الذي سيخدم كمحفّز نفسي لجعل الاستثمارات تبدأ بالتحقق في سوريا. إن مشروعاً كذلك لمّا ينطلق بعد، وليس هنالك ضمان بأن انتظاره لن يحقق الأمثولة المسرحية لصموئيل بيكيت «في انتظار غودو». إن الإصرار على انتظار كهذا، الناجم عن الفكرة التقليدية القائلة إن «الاستثمار» يساوي تدفق «المرة الواحدة» للمال بكميات كبيرة من دون أي تبعات، يمكنه أن يتسبب في الوقت نفسه في تشتيت الانتباه باتجاه الضياع الكامل أو على الأقل نحو عالم أحلام اليقظة، لا الواقع.

أيضاً، هذا الإصرار يجعل من المستحيل رؤية أن فرص الاستثمار كانت موجودة هنا مسبقاً، وهي موجودة الآن، وستستمر كذلك مستقبلاً. نحن فقط بحاجة إلى نزع العُصابات عن أعيننا وأن نعيد تقييم الكيفية التي نريد عبرها رؤية، وفهم، وإدراك «الاستثمار»، كما نحتاج إلى التفكير: هل نحن على درجة من الجاهزية لإعادة تعيين الأولويات المرافقة لذلك، وهل نريد الذهاب في طرق بديلة؟ ليس من الضرورة أن يكون الطريق البديل مبهرجاً أو أن تتساقط عليه نعمُ السماء؛ كلما استطاع هذا الطريق توفير رضى أكبر، مثّل نقلة بنيوية حقيقية نحو دمج أكثر تركيباً لاقتصاد الأمة، وتطوره، والعمالة المرافقة له، والفعالية الذاتية، والنشاط (في المرحلة الأخيرة، الاكتفاء، والوفاء الوطني) لمواطنيه.

كيف، إذاً، يمكننا فعل ذلك، وما الذي يجب علينا توقعه منه؟ من أين يجب علينا البدء، وأي تغيير في زاوية النظر يجب تحقيقه هنا؟ بالتأكيد، سوف يفكر الأشخاص الحاذقون بشيء من قبيل «يجب علينا أن نعرف كيفية جذب المستثمرين»، «يجب علينا أن نعرف كيفية التعامل مع الاستثمار بذكاء»، أو مثلاً «يجب علينا أن نعرف أفضل طريقة يتم عبرها إعادة توزيع منافع الاستثمار على الاقتصاد بطريقة علاجية ومنشطة لأكبر عدد من قطاعات الاقتصاد». إن ذلك يبدو رائعاً ومتنوّراً، ولكن إن أدركنا حقيقة أنه لا يمتلك أحد حتى الآن فكرة جيدة عن نقطة الانطلاق، وبأي رؤية، ومع أي آمال بالضبط وبالنسبة إلى أي أرباح، وبأي ترتيب للأولويات، وضمن أي إطار قانوني يجب علينا ويمكننا أن نستثمر... فإن ذلك بمجمله مجرد أحلام يقظة ناجمة عن الإصرار على إعلان المشاريع الضخمة. في الوضع الحالي، لا يمكننا الاعتماد على المشاريع الضخمة ولا على الهذيان المرافق لها، وهو هذيان يتشكل من عبارات عريضة عامة مبهجة، إنما مفتقرة إلى محتوى محدد.

لمعرفة مصدر هذا الشكل من التفكير . المنفصل كلياً عن الواقع . يمكننا أن ندقق بتفصيل أكبر تسلسل أفكار البيروقراطي (المتحمس ربما إنما غير المتمرس). إنه في حلم اليقظة، على الأرجح، يرى أجنبياً يحمل حقيبة مليئة بالمال ويقف خلفه معمل صناعي مبنيّ بثقة، ثم يبدأ بالإنتاج، التصدير، دفع الضرائب، ضخ الأموال في الاقتصاد. يرى البيروقراطي من زاويته معملاً مزدهراً، وآخر ثانياً بجانبه. في النهاية، يرى مدينة كاملة مملوءة بعمّال سعداء وآباءٍ مبتسمين يذهبون إلى العمل، فيما تحضر زوجاتهم الغداء في المنزل، والأطفال في المدرسة، وهنالك عمل ولعب... في نهاية الأمر، كل شيءٍ مزدهر!

إن هذه لفكرة مغلوطة كلياً. إنها كذلك بسبب . ولأسباب أخرى . أنها مبنية على افتراض تلبية أي مطلب وأن المستثمر معطاءٌ ومتصدّق. إن جوهر المشكلة يبقى كامناً في الرابط المفترض التقليدي بين الاستثمار وشيء ذي «أبعاد عليا» أو أمر ما «خَلاصيّ»، أيضاً في اعتبار أن الاستثمار (حتماً أو في غالبية الحالات) يأتي «من الخارج». إن هذه نظرة انتقائية على نحو خطير، فهي من جانب، تتجاهل المعنى الحقيقي للاستثمار، ومن جانب آخر، تقوم على تسليم ضمني لفعالية الاستثمار إلى أيدي المستثمرين الأجانب (غالباً) بسبب مفهومها المحدود عن الواقع. عبر فعل ذلك، يبعد ذلك «الخلاص» عن الناس المحليين وعن قدرتهم على إظهار أنفسهم ليس فحسب كمستثمرين، بل حتى كمتسلّمين لما يمكن اعتباره استثماراً.

إن القاسم المشترك بين الإخفاق الممكن أن ينجم عن مزيج من الرغبات الكبيرة في جذب المستثمرين من جهة، والتردد الدائم من جهة أخرى، يمكنه أن يتشكل من دون الحاجة إلى أهداف كبرى نابعة من فهم اصطلاح «الاستثمار»، والمقيد . كمفارقة . بهوَس العظَمة. إن استطعنا توسيع هذا الفهم إلى حدوده القصوى، فإن طيفاً من الفرص الأكثر واقعية ومنفعة إنسانية،

اليمين المسيحي: التاريخ معنا!

صادق النابلسي *

يعيش اليمين المسيحي اللبناني عقدة الرئيس اللبناني الأسبق بشير الجميل. النوستالجيا لعهده البائد تعالج رومانسياً ربما، إهمالاً كبيراً في هياكل التوقعات، لكنّها لا تسدّ وحشة وضمور الواقع الممتلئ بتحولات قوى صاعدة لها فاعليتها وحضورها وبدائلها وخياراتها الوطنية. استقبل اليمين عهد بشير مهللاً باعتباره «نهاية التاريخ» و«نهاية الأيديولوجيات»، ولم يكن «صدام الحضارات اللبنانية» بين بعضها البعض إلا النتيجة المطلوبة التي كان ينتظرها بشير وبمينه لتثبيت مدّعاهما حول الصيغة النهائية للبنان الجديد.

لم يكن اليمين، الذي مثّله بشير على أساسٍ من التعالي والتطرف، يشعر بالاضطهاد والتهميش والقمع والمظلومية، ولكن العصر آنذاك كان أميركياً ـ إسرائيلياً، ونظرية «الدولة المسيحية» مستحكمة في أوساط نخبه السياسية والدينية. وهذان عاملان حاسمان للاستحواذ على نصيب أوفر من الجغرافيا والتاريخ والسياسة. الشعور بالتفوق والقوة شكّلا فرصة نادرة لتحقيق «الرسالة التاريخية» التي تطلّبت سيطرة دون منازع على المجتمع والدولة. الموقف الأيديولوجي والتنظيم وبناء هياكل بديلة كانت تُقدّم بزيٍّ تقدّميٍّ، خلاصي، لاهوتي، راديكالي وكلها تشترك في تفاؤل بأنّ التاريخ يتطور كما يشتهي اليمين وقادته. كان بشير ضنيناً بالسيطرة على آلة الدولة باعتبارها مفتاح التغلّب على النفوذ السياسي والاقتصادي والثقافي للطبقة التقليدية صاحبة الامتيازات، ومنعها من تقييده وباقي الأجهزة والمؤسسات العميقة من تحيّزات سياسية لا يرغب فيها، وخيارات، لا يرتضيها، تريد ضمان مصالح المجموعات الطائفية وإدامتها.

على المستوى المسيحي، توخّى بشير إبراز «قوته الضامّة» التي من شأنها تيسير عملية الدمج والانضواء لمختلف التيارات والأحزاب والشخصيات الفاعلة تحت إرادته الواحدة المطلقة، وعلى المستوى الإسلامي كان المطلوب إبراز «قوته الطاردة» والتعامل مع الطرف المناهض لوجوده في السلطة براديكالية حادة. وكان يفترض أنّ تفكيك شبكة العلاقات والتحالفات التقليدية بجناحيها المسيحي والإسلامي نتيجة حتمية لموازين القوى التي تصبّ لمصلحته، وخصوصاً أنّ الاحتلال الإسرائيلي الذي رهن لديه كل أوراقه بات واقعاً جيو ـ سياسياً مهيمناً يمكن الاستناد إليه في عملية بناء «الإمبريالية البشيرية».

مع محاكمة حبيب الشرتوني، كان هناك من يستعيد زعماً يمينياً قديماً بأن «التاريخ معنا». ظنّت مجموعة متحمسة من الكوادر والأنصار أنّ النظرية تعرّضت مع اغتيال بشير لانتكاسة، وأنّ الفرصة متاحة اليوم لإعادة إحيائها بتنشيط البروليتاريا المسيحية وإثارة عواطفها من جديد. فات على هؤلاء أنّ هذه «النظرية» بصياغاتها المتطرفة والمخففة على حدّ سواء أصبحت جزءاً من الماضي بحيث لا يمكن تذكّرها إلا في سياق الخيال المجنون الذي سيطر على نخبة حاولت أن تجمع بين تهويمات الأساطير الدينية، وما

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500، 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع شركة الوانك 15ـ01/666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper